قصة

لحظات منسية

الكاتب : همام زكريا طالب

الناشر : موقع جنسترا الالكتروني

2010

قصة لحظاتٌ مَنْسِيّة

كتبها:

هُمام زكريا طالب

13 - ربيع الأول - 1431هـ

27 - فـــبـــراير – 2010م

كلماتي

لكل أمة عادة وتقليد تجعلهما منهجاً في جميع فروعها الحياة اليومية والعملية، حتى إنّ المشدّدين فيهما يَصِلون إلى التقديس الذي لا رجعة فيه، وتظل هذه الأمة مسجونة العادات والتقاليد، فلا تدعهما ولا العادة والتقليد تدعها أبداً. إنّ في العادات والتقاليد لأفعال مفيدة في حياتنا، ولكن لا يمكن لنا أن نتّخذ كل الأفعال ديناً، ولا نَدَعُ جميعها بالطبع، فلا طاعة للكل، ولا معصية للكل، ولكن هل لنا أن نتّخذ طريقاً آخر لمواجهة العادات والتقاليد؟ الجواب هو نعم، الوسطية هي الحل لقضيتنا، فمثلاً نُخرج الصحيح كشعرة من الخطأ، ونستفيد من الصحيح، وندع الخطأ فلا نعمل به، ونوجّه الآخرين كما فعلنا مع الصحيح والخطأ، للعمل مثلنا، فكم من أمّة تركت الخطأ وعملت بالصحيح!، ونتج من ذلك تطوراً في جميع مجالات الحياة كلها، فألزمت كل الشعب بتطبيق الوسطية في الحياة، فنالت هذه الأمم المرتبة الأولى بين الأمم الباقية.

إنّ العُرْفَ عَلِم به ناسٌ، ثم فهموه صحيحاً، ثم طبقوا الصحيح الذي يؤدي إلى النفع والفائدة لهم، ولكن هل نحن مثل ذلك الناس؟، فليحاسبْ كلٌ منّا ذاته، ولا ينتقد إنسان غيره قبل نقد ذاته أولاً، ثم تصحيح نفسه ثانياً، ثم فلينتقد الآخرين تحت معرفة كاملة في كيفية النقد الجيّد التام، ولا ينتقد عبر هواه، والله لئن لم ينتقد كلٌ منّا ذاته، ويعرف أخطاءه، فلن نصل إلى تطبيق الصحيح، وهذا هو الذي يؤدي إلى التطور مثل الأمم التاركة للخطأ والفاعلة للصحيح.

أخيراً أدعو الجميع من كل قلبي أن يفهم الصحيح من العادات والتقاليد، ويعمل به، ويترك الخطأ ويبتعد عنه، ويَعِدُ نفْسَه أن لا يرجع إليه مرة أخرى، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا.

أهدي هذه القصة لكم، للعبرة والموعظة من خطأ في العادات والتقاليد أدى إلى أكبر مصيبة نفسية لإحدى الفتيات عندما أحبّت فتىً في عمرها.

هُمام زكريا طالب

لم أكن أعرف أنني سأواجه حقيقته، لقد رأيته بأم عيني وهو معها في نفس المطعم الذي كنّا نتقابل فيه معاً، ننظر لبعضنا بعضاً، وكأننا متقاربان، وخُلِقنا لبعضنا، نمضي كل وقتٍ أحلى من الآخر، نأكل فنمشي معاً في الأراضي الخضراء في الحقول والمزارع النضرة، ولا أنسى رائحة الزهور التي تُشم رائحتها الزكية من مسافة بعيدة، فيقطف لي بعضاً منها ويهديني إياها، فيقول لي: لا يوجد فرق في الجمال بينك وبين الزهور، بل أنتِ أجمل منهنّ بالتأكيد.

إنني أحس في نفسي نفس شعوره الذي لا يفارقه أبداً حينما أكون معه، ولم أمَلْ من تلك الأوقات واللحظات والثواني التي أتمنى أن تتكرر مرة أخرى ولو ليوم واحد، حتى إنّ الذي جعلني أتقرّبُ منه كثيراً وعوده التي قطعها لي، فمنها: الزواج، السفر إلى أجمل البلدان في العالم، قضاء شهر العسل في أحلى الأماكن الخلابة، بدون هموم تقصّر العمرَ، وتقشعر بها الأنفس، وكنتُ موافقة على مخططاته ومشاريعه الكثيرة، لأنني كنتُ أشاركه نفس الرؤى إلى المستقبل، وتحقيق السعادة لنا للأبد، وبنفس الأوقات لم أرَ منه شراً قط، بل كل خير ووئام معه في حياتي دائماً، حتى إن مرة التقيتُ معه وأنا حزينة ومتشائمة، فعندما رآني ما لبث إلا وطوى صفحة الحزن والتشاؤم لديّ، وفتح لي صفحة الفرح والسعادة التي تنبع من القلب.

كان جميل اللسان، وطلته لا أنساها عندما يُقبِلُ، فأراه كأنه مَلَكٌ كَريمٌ، فلا أهتم بالذي يحصل حولي، طلته تجعلك تنسجم معه فلا تريد أن ترى إلا إياه، ثم يجلس أمامي ونمضي وقتاً جميلاً، وكان صادقاً بالكلام والفعل، لا تشعر بالوقت معه ويذهب الوقت في السرور والسعادة، ويُنسيك أن وراءك أعمال وأشغال.

وفي نهاية كل لقاء، كنتُ أجلس في غرفتي أفكر بالذي حصل بيننا في كل يوم، وأنا أفكر وأتأمل وإذ بهاتفي النقال يرن، (من يتصل بي الآن؟)، (آه

إنه هو، نعم إنه هو)، فيقول لي: سلامي مع أحلى طير، بعثته ليقول مني: تصبحين بألف خير. وفجأة يُنهي المكالمة، وأنا غارقة بأفكاري، فأنام ليلتي بعد قضاء وقت جميل، مرتاحة البال ومرضية الضمير والفؤاد، ثم يصبح الصباح الصبوح، وتغريد العصافير تملأ الأجواء جمالاً وبهاءً، والكل ذاهب لعمله باغياً للرزق الحلال، وطالباً للأجر والثواب من رب الكون، وأنا غارقة بنوم عميق يقطعه اتصال العشيق، (من المُتَّصِل الآن؟)، (آه إنه هو مرة أخرى)، فيقول: صباح الخير يا وردة قطفتك من أحلى الورودِ، شذاك يُشم من بعيد ويُلين فؤاد اللدودِ. ويُغلق المكالمة، بعد أن تركني في قمة الخجل والحياء، وأنا أفكر بكل كلمة تلفظ بها، وأهدني إياها بدون أن ينتظر مني كلمة شكر له حتى.

إنني أذكر حفلة تخرجنا من نفس الجامعة التي درسنا فيها وتعرفنا على بعض لأول مرة، قضينا في هذه الجامعة خمس سنوات دراسة كانت أحلى السنوات الدراسية في عمرنا، تعرّفنا على بعض في السنة الأولى، وكان هو شرطي المرور الذي يهديني إلى الصراط المستقيم في الدراسة، ووقتما عجزْتُ عن حل إحدى المسائل، كان المساعد الأول لي، وكنتُ أعتبره أفضل من الدكتور حتى في كيفية توصيل المعلومة إلى الذهن، فلم يملْ، ولم يكلْ أبداً في شرح أي درس لي لم أفهمه قط، لقد كان شمساً تنير دربي بدون مقابل، وصباحاً يشرق عليّ بتفاؤل، بعد أن كنتُ في الظلام والتخبط بالجهل اللانافع لي، وحينما يكون يوم الاختبار في أحد الأيام، كنتُ أدرس ما يتطلب عليّ دراسته بجد واجتهاد بدون تعبٍ ولا تراخٍ فيه في اليوم السابق للاختبار، وفي يوم الاختبار كنّا نراجع ما دُرسَ قبل ساعة الاختبار، فكان يصحح لي أخطائي في الدراسة، وينبهني إليها بدون غضب، وبوسيلة تجعلني أحب الاختبار ومواد الجامعة كلها، إنه بالطبع أستاذ المستقبل من دون شكٍّ ولا ريبٍ، وبعد نجاحنا في السنة الأولى، درسنا السنة الثانية فكانت مثل قبلها، لم يتغير أي شيء، بل تابعنا ما كنّا عليه سابقاً في السنة الأولى، ثم أتت السنة الثالثة تحمل معها صعوبة الدراسة أكثر وظهور عواقب أصعب في طريقنا للتخرج من الجامعة، إذ كانت شبه انتحار لمعظم الطلاب والطالبات، إلا من كدّ وتعب، ووضع نُصب عينيه التميز الدراسي، مُزيِّناً طريقه بالاجتهاد بدون تراخٍ، حتى إنه أيضاً كان يستصعب بعض المواد لا كلّها، فكان دوري أن أسدّ بعض

ديوني له، وأشرح له ما لا يفهمه، فكنّا متبادليّن بالمواد، إذ كانت بعض المواد الصعبة عليّ، كانت عليه سهلة، والمواد السهلة عليّ، كانت عليه صعبة، فمرّة أشرح له، وأخرى يشرح لي، فتمتلئ السعادة قلبنا معاً، بالنجاح المزدهر الذي أضاء حياتنا كلها بعد الإعلان عن النتائج في آخر السنة.

ثم أقبلت السنة الرابعة بحلة جديدة، مختلفةً عن شقيقاتها السابقات، فكانت سهلة في الدراسة والحفظ، لكن صعبة في تطبيق ما درسنُه، إضافة إلى ذلك، مُكمِّلة لشقيقتها السابقة أي السنة الثالثة، فزادت في التفرّع في مجالات الدراسة، وأكثر تعُمقاً مما سبق، فمللنا كثير الملل، وضجرنا، لكننا لم نستسلم ونقف لننتهي هنا، بل أكملنا ما بدأناه بالسنة الأولى، ونريد أن نحقق الهدف الذي نودّ الوصول إليه، ومتمثلين بقول الشاعر أبو القاسم الشابي:

ومَنْ لا يُحِبُّ صُعودَ الجِبال يعِش أبَدَ الدَّهْرِ بين الحُفَر

كان ذلك شعارنا في الجامعة، وفي الحياة اليومية أيضاً، فلم يغِب عن البال يوماً، ولن يغِب عن البال أبداً، وإنه والله مازلتُ أعمل به الآن، وأعتقد أيضاً إنه هو أيضاً يعمل به حتى الآن، لأننا عاهدنا أنفسنا على التمثل به حتى لو فرقتنا الأيام، وهذه الأيام فرقتنا كما تَرى.

– ولكن ماذا حصل في السنة الرابعة والخامسة؟.
لقد قضيناهما بسرور وسعادة، لا مجال ولا حدود للفرح، فلم يمسّنا أي ترح، لذلك أتممناهما بنجاح باهر، بأعلى معدل يرفع به رأس أهالينا دائماً.
– لقد تحدثِ عن الصداقة، ولكن منذ متى بدأ حبكما؟.

في يوم من الأيام، اتصل بي على هاتفي النقال، وطلب مني لقاءً في الحال، لكنني استغربتُ من اتصاله المفاجئ، والتقينا عند ضفة البحر، وهناك جلسنا بصمت طويل أولاً، ثم ما لبثتُ إلا وسألته عن سبب

اللقاء السريع اليوم، فأجابني قائلاً: إننا نعرف بعضنا منذ زمن، ولكني فكّرْتُ بهذه الصداقة، وأريد أن يكون الرابط بيننا غير الصداقة، لذلك أنا أحبك من أعماق قلبي.
قلت باستغراب: هل أنت بكامل صحتك وقوتك الآن؟.
قال: نعم، وأنا بكل قوتي وصحتي أقول لها لك: إني أحبك أنت.
قلت: دعني أفكر بالموضوع، وسأخبرك بأقرب وقت.
قال: خذي وقتك، وليس عندي مشكلة.
في مساء اليوم التالي، صارحْتُه بحبي أيضاً، وهكذا كانت بداية حبنا الجميل، وعشقنا وهوانا النبيل، لكنه مُحِيَ إلى العدم بعد مضي زمن طويل، بسبب تدخّل أبويه في طريق الحب، إذ كانا يريدانه الزواج من اختيارهما لا من اختياره، فتحطّمتِ أحلامنا المستقبلية جميعها، وتمّ زواجه من فتاة أنا متأكدة أنه يكرهها، ولا يزال يحبني الآن، لكن اليد قصيرة.

تلك كانت قصتي الكاملة من البداية إلى النهاية مع حبيبي السابق، وكيف استسلمنا لمشكلة هيّنة سببت الفراق والرحيل، لأجل سعادة حبيبي وفتحه صفحة جديدة عن الحياة، وتألّمي وجرحي بعد أن عَلِم الناس بقصتي معه، ومن يومها لم يطرق على بابي أحدٌ يخطبني، لأنني عشْتُ قصة حب قبل الزواج، والله إنني كنتُ لا أضمر الشر لحبيبي ولكن لا يصدّقني أحد، وهاأنا ذا أمامك يا طبيب لتداويني من أزمة نفسي.

تمّت

****